

تفسير ابن كثير

وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

وقوله : (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب) أي : وصى بهذه الملة وهي الإسلام الله [أو
يعود الضمير على الكلمة وهي قوله : (أسلمت لرب العالمين)] . لحرصهم عليها ومحبتهم
لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم ; كقوله تعالى : (وجعلها
كلمة باقية في عقبه) [الزخرف : 28] وقد قرأ بعض السلف " ويعقوب " بالنصب
عطفًا على بنيه ، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرا ذلك ،
وقد ادعى القشيري ، فيما حكاه القرطبي عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم ،
ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح ; والظاهر ، والله أعلم ، أن إسحاق ولد له يعقوب في
حياة الخليل وسارة ; لأن البشارة وقعت بهما في قوله : (فبشرناها بإسحاق ومن وراء
إسحاق يعقوب) [هود : 71] وقد قرئ بنصب يعقوب هاهنا على نزع الخافض ، فلو لم
يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة ، وأيضا فقد

قال الله تعالى في سورة العنكبوت : (ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) [الآية : 27] وقال في الآية الأخرى : (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) [الأنبياء : 72] وهذا يقتضي أنه وجد في حياته ، وأيضا فإنه باني بيت المقدس ، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة ، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت : يا رسول الله ، أي مسجد وضع أول ؟ قال : " المسجد الحرام " ، قلت : ثم أي ؟ قال : " بيت المقدس " . قلت : كم بينهما ؟ قال : " أربعون سنة " الحديث . فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس وإنما كان جدده بعد خرابه وزخرفه وبين إبراهيم أربعين سنة ، وهذا مما أنكر على ابن حبان ، فإن المدة بينهما تزيد على ألوف سنين ، والله أعلم ، وأيضا فإن ذكر وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريبا ، وهذا يدل على أنه هاهنا من جملة الموصين . وقوله : (يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أي : أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه . فإن المرء يموت غالبا على ما كان عليه ، ويبعث على ما مات عليه . وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه .

ومن نوى صالحا ثبت عليه . وهذا لا يعارض ما جاء ، في الحديث [الصحيح] " إن
الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه
الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما
يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها
" ; لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث : " فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس
، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس . وقد قال الله تعالى : (فأما من أعطى واتقى
وصدق بالحسنى فسنيسره ليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى
([الليل : 5 - 10] .